الملك الظاهر بيبرس

لا ينتهي هذا العام أيها السادة حتى يكون المجمع العلمي قد انتهى من إصدار عشرين مجلداً من مجلته : تفجرت ينابيعها بالأبحاث المختلفة في اللغة وآدابها وما له اتصال بها .

وقد أخذ المجمع يفكر في تنظيم فهرست عام لهذه المجلدات العشرين . يدني لبد المراجع بعيدها ويسهل عليه الرجوع الى ما خبئ فيها .

وقد احببت ان أنظم لنفسي فهرستاً يشتمل على بعض ما في هذه المجلدات العشرين من الأبحاث الخاصة : فأحصيت المقالات التي بحثت في الأوضاع اللغوية فوجدتها تبلغ ٣٠ مقالة ونيفاً . ثم أحصيت ما فيها من تراجم الأعيان ومشاهير الرجال فكانت نحو ثمانين ترجمة منها (١٥) للمستشرقين وهناك ترجمة لبوذه معبود الصين . واخرى لطاغور شاعر الهند . وثالثة لأحمد باشا الجزار الوالي التركي المشهور بالظلم في تاريخنا الحديث .

هذا ما وجدته في العشرين مجلداً من تراجم الرجال . أما محاضرات المجمع التي أُلقيت في هذه الردحة فربما بلغ عددها في الخمس والعشرين سنة ٣٥ محاضرة . منها محاضرات خاصة بذكر مناقب رجال التاريخ حتى احمد باشا الجزار نفسه فان له محاضرة مستقلة وُصف فيها بسوء السيرة لكنها أحيت ذكره على كل حال .

لا أكاد أصل في إحصائي هذا الى ذكر (الجزّار) حتى أسمع صوتاً من ورائي وعلى بعد عشرين متراً من موقفي هذا .

في هذا الصوت عُجمة وارتضاخ لكنة وعليه مسحة من جلال الموت ووحشة القبور يقول : أقلقتم راحتي . في هدأة رقدتي . نحواً من خمس وعشرين سنة . وأنا اسمعكم من فوق منبركم هذا تخطبون وتحاضرون . وأحياناً الى الغث من القول تستطردون . ولم أسمعكم قط ذكرتم اسمي في كل ما نشرتموه في مجلتكم أو نوهتم بشيء من أعمالي في محاضراتكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيكون لبوذه الصيني وطاغور الهندي والجزار التركي نصيب من اهتمامكم في مجلتكم ومحاضراتكم ولا يكون لجاركم بيبرس البندقداري شيء من ذلك حتى كأن مآثري ذهبت هباء . أو أنني ربذة ملقاة في الفناء لو لم يكن لي من جليل الأعمال إلا أني أكملت ما بدأه نور الدين وصلاح الدين ومهدت الطريق لرابعنا (قلاوون) وبذلك تم جلاء عدوكم عن بلادكم — لكفاني فخراً وعجباً . ولسوغ لي أن أوسعكم لوماً وعتباً . أين أنتم من مراعاة جواري . وحسن مجازاتكم لي على حلول داري .

هذا ما تخيلت أني اسمعه — أيها السادة — من جارنا الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي رحمه الله . وقد خجلت يعلم الله منه . وأسرعت الى تدارك ما فرط منا معشر المجمعيين فخصصته بهذه المحاضرة التي لا حسن فيها سوى براءة ذمتنا وأداء الحق الذي علينا لجارنا .

حقاً أيها السادة إن في إغفالنا ذكر هذا الملك المنقذ بين من نوهنا باسمهم في مجمعنا شيئاً من نكران الجميل . وغمط الحق . أو هو ذنب لا يغفره الا موقفي هذا . وحسنُ إصغائكم إلى ما أسرده على مسامعكم من مآثر الرجل ووصف ما أوتي من جلد وشجاعة وحسن تدبير ولطف سياسة حتى أمكنه جمعُ كلمة البلاد وزعزعةُ أركان المتغلب عليها وجعله على أوفاز للجلاء عنها .

وقبل الشروع في المحاضرة نقول لجارنا الملك : سمعنا عتبك علينا وسنعمل على إعتابك ما وسعته طاقتنا غير أن امر نشأتك في بلادك حتى حالت بين أظهرنا مما غاب عنا خبره . واختلف الرواة فيه . فهل لك أن تُسمعنا الحديثَ عنه من فمك ثم نَصله بالمدوَّن المنقول الينا من خبرك وما كان من محاولتك الملك حتى نلت منه امنيتك . وقضيت نهمتك .

* * *

قال نعم : منبتي صحراء الدشت من قوم رُحَّل يسمَّون قبجاق أو قفجاق وتنسب الصحراء اليهم فيقال دشت قفجاق . وبلادي واقعة وراء جبال القفقاس وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تمتد بين البحرين : بحر الخزر من الشرق والبحر الأسود من الغرب (وهي اليوم تؤلف جزءاً كبيراً من روسية اوروبا) ومعظم سكانها مسلمون . ومن مدنها كاسان واوفا وسراي (ولعلها التي تسمى اليوم استرخان) ومن أنهارها نهر (اتل) (الذي يسمى اليوم نهر الثولكا) ومن شعوبها القرغيز والبرغال أو البلغار (وهم البلغار الأقدمون) وكنا من أصل تتري . وقد ولدت من أبوين قفجاقيين سنة ٦٢٥ هـ فسماني (يبرس) أي الفهد . واتفق ان أغار علينا اخواننا التتر من أحفاد جنكيز خان وذلك سنة ٦٣٩ هـ فالتجأنا الى اخواننا بلغار بلاد الروسية بعد الاستئذان من ملكهم (أنس خان) فسمح لنا بدخول بلاده ثم غدر بنا وسبى من يصلح للسبي منا . وكنت أنا من جملة السبي . وعمري يومئذ ١٤ سنة . ولا يشوقني من لذائذ صبوتي في بلادي سوى ركوب الخيل وخلق طرائد الوحش عليها وسوى أني كنت مولعاً بشراب القِمِز حتى وكان هذا الشراب سبب موتي في بلادكم (والقمز أيها السادة شراب يتخذ من حليب إناث الخيل [1])

قال يبرس : ولا تخطر بلادي في بالي حتى الخيل التتري من قومي راكعاً بين ساقي فرسه ممسكاً بأخلافها منهمكاً في احتلابها حتى اذا تجمع هذا الحليب لدى الأسرة باعوا بعضه وشربوا بعضه وعزلوا شيئاً منه لاتخاذ القمز . وكأني أنظر الى عمي وهو متدثر بفروته الثقيلة من جلد الغنم يتقي بها البرد . وعلى رأسه كِمَّةٌ كثيفة مبطَّنة بالفرو وقد أخذ بين يديه زُبدية كبيرة فوضعها على فمه

(١) لا يخفى أن فقهاء الاسلام كرهوا أكل لحوم الخيل وشرب ألبانها خشية انقراضها وهي آلة الجهاد . أما فقهاء ما وراء النهر المنتشر مذهبهم بين أهل سيبيريا ومنهم القفجاق فقد كرهوا لحوم الخيل للمدة للجهاد أما تلك التي تعيش سائمة وترعى قطعاناً كما ترعى البقر والغنم فلا كراهة في أكل لحومها ولا شرب ألبانها . و يقول الخبيرون أن قبائل سيبيريا ما زالوا الى أيامنا هذه يربون من الخيل قطعاناً ينتفعون بلحومها وألبانها ونتاجها على نحو ما نفعل بمواشينا . كما أنهم يتخذون من ألبانها شراب القمز المعروف قديماً . (والقِمز) بكسر القاف والميم وتشديد الزاي كما ضبطه مؤرخو الاسلام . أما الانكليز فيلفظونه هكذا (قوميس Kaumiss) وللقوميس في سيبيريا اليوم معامل يحضر فيها بمقادير كبيرة ويصدر الى الخارج في زجاجات مُعقَّمة كما يفعل الأوربيون في تصدير أشربتهم ومعلباتهم (التونسروا) الى بلادنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجعل يكرع ويكرع من شراب القمز وأكون في ناحية انتظر فراغه لأشرب ما فضل عنه من ذلك الشراب اللذيذ .

ثم قال (بيبرس) متمماً حديثه وساقنا النخاسون الذين اشترونا من بلاد (انس خان) الى سيواس ومنها الى حلب فدمشق . فاشتراني العمادُ الصائغ لكنه أخيراً زهد فيَّ لبياض رآه في احدي عينيّ واحتاج المنصور ملك حماة الى مماليك فنقلني النخاس الى حماة .

وكان الملك المنصور هذا يومئذ صبياً وكان اذا اراد شراء رقيق عرضه أولاً على الخاتون الكبرى والدته فأحضروني اليها ومعي رفيق لي فجعلت تنظر الينا من وراء ستار . فأمرتْ بشراء رفيقي وقالت تخاطب ابنها المنصور مشيرةً إليَّ (هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فانَّ في عينيه شراً لائحًا) قال وقد أثارت كلمتها في نفسي هواجسَ لاذعة ما زالت تنمو وتتطوَّر وتسوقني الى طلاب الملك حتى نلته .

قال واتفق أن كان في حماة يومئذ الأمير أبديكين البندقداري مسجوناً بأمر سيده الملك الصالح أيوب (حفيد من نحن في مدرسته أعني الملك العادل) فبلغه خبري فاشتراني ثم افرج سيده الملك الصالح عنه فخرجت مع ابديكين من حماة الى مصر وغضب الصالح عليه ثانية فصادره . وكنت أنا في جملة أموال المصادرة وأصبحت من يومئذ (الصالحي) إي المنسوب الى الملك الصالح بعد ان كنت (البندقداري) اي المنسوب الى الأمير ابديكين البندقداري وكان عمري يومئذ تسع عشرة سنة .

أقول فيكون بيبرس قضى خمس سنوات وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن يد سيد الى يد سيد حتى استقر أخيراً في حوزة الملك الصالح أيوب . فكان نعم المستقر : إذ قد عرف له الملك نجابته وادرك ان الشرّ اللائح في عينيه الذي تشاءمت به الخاتون انما هو خير : إذ لا يستقر ملك في ذلك الزمن إلا به . ولا تعتدل قناةُ حكم إلا إذا قوِّمت بثقافه : غدرُ ملك بلغار ببيبرس وبقومه . وتنقله أسيراً رقيقاً في البلاد . وقولُ الخاتون ان في عينيه شراً لائحًا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودخوله في جملة الأموال المصادرة التي قد يكون بينها دوابُّ ومتاع — كل ذلك قد لا يوري نار الحماسة في نفس غير نفس بيبرس أما في نفس (الفهد) كما سماه ابوه تلك النفسُ المتقردة الوثابة فان كل ما ذكرناه قدح فيها زنداً وارياً وأثر فيها تأثير الانتباه واليقظة للوسط الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش فيه : فجعله يعتقد ان حياته لا تستقيم وعيشه لا يطيب . وبغيته لا تنال ما لم يتسلح بأسلحة ذلك العهد : القوة والبطش والدهاء والمكر والانتقام أحياناً .

عاش بين مماليك سيده الملك الصالح وكلهم أتراك شجعان فرآهم انما يتحدثون عن المُلك وأدواته . والعرش وشهواته . وأخبار الملوك من أبناء جنسهم والطرق التي سلكوها . والأساليب التي اتخذوها حتى بلغوا أهدافهم وكان من اسماها تسنُّم العروش .

كان في بيبرس نجابةٌ وشجاعة وكان فيه فطنة وذكاء . وصلابةُ عود واستعداد لاستعمال أساليب تلك العهود . من حيث يؤدي ذلك الى الملك .

وكان بين هؤلاء المماليك الكثيري العدد اثنا عشر ملكاً مسَّهم الرقّ فلم يكن يُعرف اسمُ آبائهم . ومنهم بيبرس جارنا وكان المؤرخون اذا نسبوا هؤلاء الملوك الأرقاء قالوا (فلان ابن عبد الله) إشارةً الى جهالة أصله وكان بيبرس من أبناء عبد الله هؤلاء وقد نَظَمَ بعض الشعراء اسماءهم بحسب ترتيب تملكهم في بيتين من توقيع المواليا فقال :

(ايبَك) (قُطُز) يعقبو (بيبرس) يا ذا الدين
بعدو (قلاوون) بعدو (كتبُغا) (لاچين)
(بيبرسْ) (برقوق) بعدو (شيخْ) ذو التبيين
(طَطَر) (بَرَسْباي) (جقمَقْ) صاحب التمكين

ولما جاء بيبرس الى بلادنا (او نقول بحسب التعبير الحديث الى الشرق الأدنى) كان السلطان فيها موزعاً بين أولاد صلاح الدين وأخيه العادل : أولاد العادل في مصر ومنهم الصالح أيوب سيد بيبرس واولاد صلاح الدين في الشام وكان معظمُ الساحل وبعضُ الداخل بيد الصليبيين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهناك خلافة ببغداد مهددة بالسقوط في يد التتار . فالبلاد كانت واقعة بين شرين أو عدوين ضاريين (التتار) و (الصليبيين) . ويليهم من جهة آسيا الصغرى التي هي مستطرق الصليبيين أرامنة وروم مسلمون وهم السلاجقة في كيليكيا . وروم مسيحيون وهم البيزانسيون في القسطنطينية . ومن سوء طالع البلاد بأقطارها الثلاثة مصر والشام والعراق أن كان ملوكها المسلمون متشاكسين متدابرين يتربص بعضهم لبعض الدوائر وسنوح الفرص للبطش ، والتزوان على العرش . ولم يقم بعد صلاح الدين واخيه العادل من يجمع كلمتهم . ويقف بهم في وجه عدوهم على شاكلة ما فعل صلاح الدين . وقد تنبه الى هذا كله (بيبرس) فكان نهم الدرس تلقاه عن سيده الملك الصالح حفيد الملك العادل . وقد وثق به سيده فجعله قائد فرقة مماليكه . وشهد معه وقعة دمياط الشهيرة التي أسر فيها ملك فرنسا (لويس التاسع) أو القديس لويس وهو المعروف عند العرب باسم الفرنسيس .

وصحب بيبرس بعد موت سيده الصالح ابنه الملك المعظم (توران شاه) وكان المعظم هذا شاباً أخرق سيء التدابير . فتآمر مماليك أبيه على قتله وكان أولُ من علاه بالسيف منهم جارنا وبطل محاضرتنا (الظاهر بيبرس) . وبعد المعظم قامت بأمر المُلك شجرة الدر زوجة الملك الصالح . فأنفَ المماليك سلطانها عليهم فولوا أحدهم وهو المعزّ ايبك (سنة ٦٤٨ هـ) وعمر بيبرس يومئذ ٢٣ سنة عندها تثاءب الفهد وتمطى وتهيأ للوثوب واستيقظت في نفسه شهوة الملك النائمة وطمع فيه بعد ان رأى انتقاله من أسياده بني أيوب الى رفاقه وخشداشيته المماليك .

في نفس بيبرس ميل للفتك كما قلنا . وفي عينيه آثار للشر كما قالت الخاتون غير ان وراء ذلك كله عملاً ينتظره وخدمةً يتناها وقد رأى أن هذه الخدمة لا يوفيها حقها إلا هو فمنذ تولى الملك رفيقه (المعز ايبك) ترأس هو حزبَ المعارضة المتطرّفة . ووضع مخططها أمام عينيه واخذ في دس الدسائس . ونصب المكايد . تارةً في مصر وطوراً في الشام . وكان يجهز عسكراً ويصمدُ به الى مصر فيُهزَم بيبرس ويُقتَل من معه من الأمراء ويرجع الى الشام فيجهز عسكراً ثانيًا . أو دسيسةً ثانية . ولماذا كل هذا ؟ أهو لطمعه في الملك ؟ وفي ما يختف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به من العظمة وأبهة السلطان يا ترى ؟ أو لطمعه في أن ينال شرف خدمة الاسلام وإنقاذ البلاد من براثن الضاريين التتار والصليبيين ؟ الله يعلم . ولكن من تأمل في أعماله بعد ان تولى الملك رأى في تضاعيفها وفي النهج الذي سلكه لإنقاذ البلاد ما يُشعر بأنه كان مخلصاً . في ما كان يرتكبه من الشر على حد تعبير الخاتون الأيوبية . واثقاً بأن الله سيغفر له خطاياه على حد تعبير الآية الكريمة (إن الحسنات يذهبن السيئات) . وعلى حد ما رواه احمد بن طولون أمير مصر وهو قوله (حدثني فلان عن فلان عن وهب بن منبه انه قال (اوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل : مُرْ عامة أمتك ان لا تتأسى بالملوك في ارتكاب الكبائر فان للملوك كبائر من الأفعال الجميلة لا يصل اليها غيرهم تمحص بها آثامهم ويحسن بها صدَرهم) ا هـ (راجع ص ٣٣٤) من سيرة ابن طولون اقول ولا يسلم هذا الحديث من نقد وتجريح بل هو من قول ابن منبه وهو غير ثقه .

لم يكد الملك المعزّ ايبك يستقر على العرش بعد شجرة الدر حتى رفع بيبرس صوته قائلاً : نريد ملكاً من سلالة اسيادنا بني ايوب ولا نريد ان يملك علينا رجل من غيرهم . وأدّى الأمر أخيراً الى قتل (المعزّ) فخلفه على العرش ابنه (المنصور) فوقف جارنا بيبرس من الابن موقفه من الأب موقف معارضة ودس وتأليب ثم خلعوا (المنصور) بحجة صغره فتولى بعده المظفر قُطز وهو مملوك المعزّ ايبك المقتول وكان ذلك سنة ٦٥٧ هـ وعمر بيبرس ٣٢ سنة فعظم الخطب على بيبرس وجعل يتنزّى تنزّي الفهد في القفص وزاد حقده . واشتد كيده وأوشك ان يلتهب شوقاً الى الملك أو شوقاً الى الوقت الذي يمكنه فيه إنقاذ البلاد من الخطر المحدق بها . ولا سيما بعد أن بلغه خبر استيلاء (هولاكو) على بغداد وقتله الخليفة (المستعصم) .

وكان بيبرس في زمن (قُطز) مقيماً في دمشق لاجئاً الى ملكها (يوسف صلاح الدين) الثاني وهو من أحفاد صلاح الدين الكبير ثم رأى بيبرس ان مكثه في دمشق لا يجديه نفعاً . ولا يمكنه من (قُطز) وإسقاطه ما لم يكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مقيماً بجانبه يطالع الأمور عن كثب . فأرسل بيبرس الى قطز يلاينه ويُعاتبه في بعض الشيء ثم استحلفه أن لا يخونه اذا جاءه فحلف له قُطز . فجاء بيبرس الى مصر وانضم الى مماليكيها الذين يعملون في خدْمة (قطز) ثم شهد معه وقعة (عين جالوت) على مقربة من نابلس وهي الوقعة التي دحر قطز فيها التتار . واستأصل شأفتهم من بلاد الشام . وكان انتصاره هذا عليهم كأنه انتصار على بيبرس وخذْلانٌ له في ما يؤمل ويريد . لكنه مع هذا تشدّد ونشط الى تدبير مؤامرة على قُطز في أثناء إيابه من الشام الى مصر منتصراً فاغتاله وهو بعيد عن المعسكر في لحاق طريدة أرنب . واقدامه على هذا العمل يعد من أكبر آثام بيبرس وأفظع ما ارتكبه من الجرائم . ولا سيما ان (قُطزاً) كان مُمدّحًا . حسن السيرة . ولم يكن كالمعظم تورانشاه الذي كان بيبرس قتله قبله نقول هذا ولا نبالي جارنا الذي يُنصتُ الينا . وقد يغضب من سماع قولنا . لأن التاريخ يقول كلمته ثم لا يستعتب . ولا يبالي بمن غضب إلا أن يعود التاريخ نفسه فيعتذر له بأن هذا الغدر انما تعلمه بيبرس من إخوانه ومن ملوك زمانه

(فلا تحسبوا هنداً لها الغدر وحدها سجية نفسٍ كلُّ غانية هندُ)

(وإن ننسَ لا ننسَ ملك بلغار (أنس خان) الذي غدر ببيبرس وقومه فشرّد به في البلاد . وصيّره رقيقاً تتداوله أيدي الأسياد) .

وبعد ان قتل بيبرسُ (الملك قطزاً) أقبل مع رفاقه الى الدهليز السلطاني (أي المعسكر) وفيه أمراء الجيش ينتظرون رجوع الملك من طَرَد الأرنب . فهتف الأتابك (أقطاي) (والأتابك لقبٌ بمنزلة وزير الدولة اليوم) قائلاً من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا . فقال الأتابك (يا خوند اجلس على مرتبة السلطان) وكان ذلك سنة ٦٥٨ هـ وعمر بيبرس ٣١ سنة .

وأخذ من يومئذ يفكر في جمع كلمة ملوك الشام والحجاز وحملهم على الخضوع له بمختلف الوسائل ليتمكن بذلك من إتمام ما بداه الملكان (نور الدين) و(صلاح الدين) من طرد الصليبيين وتطهير البلاد من معرّتهم .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الملك الظاهر بيبرس (١)

— ٢ —

وكان أولُ ما صنعه بيبرس مكاتبة ملوك الأطراف وأمراء الشام بأمر تسنمه عرش المملكة المصرية . ومن هؤلاء الملوك صاحب حماة الذي بايعه مغتبطاً جذلان . ولم يتخلَّف عن طاعته سوى (الأمير سنجر الحلبي) نائب دمشق فانه حلَّف أمراءها لنفسه . ثم دعا اليه صاحب حماة الملك المنصور فأبى قائلاً : (أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان) . وجعل سنجر يحبّب أهل دمشق بنفسه . وعَرَف منهم حبَّ اللهو فيسر لهم أسبابه . وأمر بتجديد القلعة . فعملوا في بنائها حتى النساءُ أنفسهن ولما كملت زفوها بالمغاني والطبول والبوقات . فكان يوماً مشهوداً . وبلغت فعلته ومروقه من الطاعة بيبرس فاتخذ خطةً حازمة أدت أخيراً الى خضوع سنجر فولى مكانه على دمشق سيده الأول (الأمير ايديكين البندقداري) وأخذ بيبرس يتتبع أخبار أمراء الأطراف الذين يخشى انتقاضهم عليه : فكان يلتقطهم الواحد بعد الآخر : ينكل بهم أو يسجنهم أو يستصفيهم وينعم عليهم . واهتم اشد الاهتمام بأمر الخلافة العباسية التي أسقطها التتار وأراد استثمار هذا الأمر في مصلحته وتثبيت مملكته والتفوّق على مناوئيه من الملوك ولا سيما بني أيوب فهو باحتضانه الخلافة العباسية يصبح هو وحده حاميها والمفوّض من قِبَلها في حماية الاسلام . وصيانة بلاد الاسلام .

وقد بلغه أن التتار بعد أن قتلوا الخليفة المستعصم أطلقوا من في سجنه من أهله . وكان فيهم (ابو القاسم أحمد) الذي لقب (بالمستنصر الثاني) فلجأ الى عرب العراق وجعل يتنسم أخبار بيبرس متشوّقاً اليه . وبيبرس أكثرُ شوقاً

---

(١) القسم الثاني من محاضرة الأستاذ المغربي التي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق بتاريخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩٤٥ وقد نشر القسم الأول في العدد السابق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليه . وأشدُّ رغبة فيه . وبقيت الخلافة شاغرةً مدة ثلاث سنوات ونصف حتى وفد المستنصر أخيراً على بيبرس في حماية أمير عرب الفضل (عيسى بن مُهنّا) فركب الملك للقائه وأقيمت المهرجانات في القاهرة عند قدومه . وبويع المستنصر بالخلافة . وكان أول من بايعه قاضي القضاة ثم بايعه بيبرس فالعلماء والأمراء . وبعد ان تمت البيعة للخليفة جاء دور إعلان ملكية بيبرس . فعُقدت لذلك حفلة كبرى . وكان الخليفة أمر بتفصيل خلعةٍ سوداء وبعَمَل طوقٍ من ذهب . وقيدٍ من ذهب . وبكتابة تقليد بالسلطنة . فقُرئ التقليد ، وألبس الخليفة بيبرس الخلعة السوداء بيده ، وطوّق عنقه بالطوق الذهبي ، وقيّد رجليه بالقيد الذهبي . وشقّ القاهرة بموكبه ، والأمراء يمشون بين يديه . فكان يوماً يقصر اللسان عن وصفه .

ولا غرابة في أن يُطوّق الملك بطوق الذهب ، فقد كان ذلك مألوفاً في تزاين الملوك الأقدمين ، وآيين احتفالاتهم ، ولكننا لم نفهم معنى للقيد الذهبي في رجل بيبرس ، فهل كان الغرض منه أن يكون خلخالاً للزينة كالطوق ؟ أو هو رمز الى ان بيبرس سوف يبقى عبداً للخلافة مقيداً بخدمتها ، وأسيراً لفضلها ومنّتها !

وقد جاء في تقليد الخليفة لبيبرس ما نصه : (وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع . ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والشامية والفراتية والحجازية واليمنية ، وما يتجدد من الفتوحات غَوْراً ونجدا . وفوّض أمرها اليك حين أصبحت للمكارم فردا) .

وهكذا انتقل الأمر والنهي من سُلطة العرب إلى سلطة الأعاجم وبقي الخليفة في مصر لا شأن له . وكان أشبه بالسجين لكنه كان يزور أحياناً الأمراء والكتاب والقضاة : يهنئهم بالأعياد ، فالملك الظاهر إنما أعاد الخلافة العباسية لأجل ان يتلقى منها السلطة الشرعية ، ويحتجّ بها على منافسيه ، ثم أهملها حتى قام زميله الأعجمي الآخر (السلطان سليم العثماني) فنقل الخلافة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مصر الى الاستانة وهناك طُمس اسمها ، ومُحي رسمها ، حتى قام السلطان (عبد الحميد الثاني) فحاول إحياءها والاستفادة من قداستها ، فلم يَرُق ذلك لمن بيدهم السيطرة العالمية فاحتالوا على إسقاطها في الاستانة ، ثم أرادت ان تنهض في مكة ولكنهم عادوا فأماتوها في قبرص .

ومنصب الخلافة أيها السادة ثالث ثلاثة محاور تدور عليها جامعة الاسلام ، فان كانت ماتت الخلافة فإن القرآن والكعبة حيان لن يموتا ، بل ان فيهما الكفاية لذوي الألباب .

وحصل في بلاد الشام خلاف بين أمرائها أدّى الى وقائع ومناوشات فاتخذ بيبرس من نزاعهم ذريعةً الى زيارتها ، وهناك شيءٌ آخر قام في نفسه : وهو ان يصطحب الخليفة الجديد ويجهزه الى استرداد بغداد من ايدي التتار فدخل بيبرس دمشق وهو معه .

وهذه أُولى سفرات بيبرس الى الديار الشامية ، وقد بلغت سفراته اليها ست عشرة سفرةً ، ومدة سلطنته ثماني عشرة سنةً ، فيصيب كل سنة وشهرين من أيام سلطنته سفرةٌ واحدةٌ الى الشام . وسنذكر ما جرى له في تلك السفرات ملخصاً تلخيصاً ، أما تفاصيلها فمدوّنة في كتب التاريخ لمن أرادها .

ولما نزل دمشق كان أولُ من جاءه فيها ملك حماة (المنصور) الذي أنِفَ أن يشتريه خوف الشر اللامع في عينيه لكن بيبرس لم يأنف من الحفاوة به والاحسان اليه : فخلع عليه وأعطاه ثمانين ألف درهم ، وهدايا أُخر ، وثبّته في مملكة حماة الى ما شاء الله حتى كان من ذريته المؤرخ (ابو الفدا) ملك حماة ومفخرتها . وأخذ بيبرس في إعداد حملة للخليفة (المستنصر) وتجهيزها بكل وسائل الأُبهة والعظمة ، حتى قيل إنه أنفق عليها أكثر من مليون دينار ، وسار الخليفة وفي ركابه عدة ملوك ، أما بيبرس فلم يصحبه ، ولم يلقِ بنفسه في الأتون : ذلك أن الخليفة لما دخل العراق انقاد اليه بعضُ مدنها ، واستعصى عليه بعضها ، وصَمَد اليه (قرابوغا) عظيم التتار بجنوده وذلك سنة (٦٦٠ هـ) ولم يكن مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخليفة من الجنود الا التركمان وجماعة من العربان . وتسلّل من رافقه من الملوك ، فلم يشهدوا الوقعة معتذرين بقولهم (ما معنا مرسوم بذلك) يعنون من بيبرس فهل كان هذا التدبير من مكايد بيبرس للتخلص من الخليفة الأسود اللون والمشكوك في نسبته الى بني العباس ، فورطه في هذه الفتنة التتارية حتى غَرِق فيها . ولم يظهر له أثر بعدها ؟ وهذا ما حدث : فان المستنصر لما التقى بالتتار أحاطوا به فنجا بعض أمرائه ومنهم أمير عرب الفضل (ابن مُهنا) وقُتل بعضهم . أما هو فلم يوقف له على خبر : قيل قُتل ، وقيل نجا مجروحًا ومات في منازل العربان ، وقيل سلم وأضمرته البلاد ، وهكذا تمّ ما أراده بيبرس وتخلص من الخليفة بعد أن أصبح ملكاً شرعياً ببايعته له .

ولعلّ بيبرس لم يرد هذا وانما اراد بهذه الحملة أن يَعْجُمَ عود التتار ومبلغَ قوتهم ، ولم يشأ أن يغامر بنفسه وهو بعدُ في السنة الثالثة من ملكه ، فلم تتوفر لديه القوة ولا أسبابها من عتادٍ وسلاح ، ولم يطمئن بعدُ الى من حوله من الأمراء الطامعين في الملك : فان بعضهم ما زال يراوغ ويُضمر السوء ، وينزو هنا وهناك نزوان الثعالب . ومنهم الأمير (آقوش البرونلي) الذي أراد أن يستبدّ بحلب ثم عاد فخضع .

ورجع الملك الظاهر الى مصر من دون أن يكون معه خليفة ، غير أن مصر اصبحت مطمح أنظار الطامعين بالخلافة من آل العباس فقصدها منهم (الحاكم بأمر الله) فاحتفى به بيبرس وعقد مجلساً لمبايعته فبويع لكنه رَسَمَ عليه أن يبقى في القلعة شبه سجين .

وفي سنة (٦٦٣ هـ) كثرت الشكاوي على قاضي مصر (ابن بنت الأعزّ) ونسبوا اليه التراخي في الأحكام فرأى الملك أن يجعل القضاة أربعة : لكل مذهبٍ قاضٍ في مصر وفي دمشق أيضاً ، واتفق ان كان من قضاة دمشق ثلاثة ، كلٌّ منهم كان يلقب بشمس الدين : شمس الدين بن خَلِّكان الشافعي . وشمس الدين الأذرعي الحنفي ، وشمس الدين بن أبي عمر الحنبلي . فقامت دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تشكو وتقول : ما الفائدة من هذه الشموس . وظلام الجور مخيِّمٌ فوق الرؤوس ،
وقال شاعرهم : بدمشقٍ آيةٌ قد ظهرت للناس عاما
كلما ازدادوا شموساً زادت الدنيا ظلاما

وكان التحاسد والتنازع حول الوظائف الدينية بالغاً مبلغه في ذلك العهد : من ذلك ما ذكره (ابن أبي عُذيبه) في تاريخه : ان التتار لما وصلوا الى حمص جمع الشيخ (محي الدين بن الذكي) صدرُ دمشق في ذلك العهد علماءها ، وأهل المناصب فيها وأشار عليهم أن يهيئوا هدية سنية يتوجه بها الى حمص ويقدمها الى ملك التتار باسم مدينة دمشق ملتمساً منه عدم التعرض لها بسوء ، فاستحسنوا رأيه ، وأخذ الهدية وقدمها اليه فقبلها شاكراً وولاّه قضاء الشام . فكبر الأمر على منافسيه من علمائها ، فجازوه على حسن صنيعه : بأن أرسلوا الى (الملك الظاهر) يقولون : ان الشيخ الذكي اقتطع لنفسه من الهدية قسماً كبيراً وطلبوا محاسبته ، فاستدعاه الملك الى مصر وسأله عن القضية فشرحها له ، ولما تبين صدقه نَفِسَ به أن يعيش في دمشق بين أولئك الحسدة فأبقاه لديه في مصر .

ولما استقرت الحالة الداخلية في المملكة أخذ الظاهر يفكر في الحالة الخارجية وكان يهمه في الأكثر تطهير البلاد من الصليبيين ، فخرج من مصر الى الشام وهي سفرته الثانية وذلك سنة ٦٦٤ هـ ونزل عين جات قرب نابلس ، ومنها بثّ جنوده فأغاروا على عكا وصور وطرابلس فسبوا وغنموا . ثم نهض هو الى صفد فامتنعت عليه الاّ أن يحلف لهم هو نفسه على شروط الصلح ، وكان في صدره حزازةٌ عليهم فمكر بهم مكراً حاسبه عليه التاريخ ، ولامه ميور الانكليزي بسببه أشد اللوم : ذلك أنه أجلس على كرسيه أحد أمرائه (كرمون آغا التتاري) فحلف كرمون آغا لرسل صفد وهم يظنونه الملك الظاهر لشدة شبهه به .
وتسلم الملك القلعة ، وبلغه ان أهلها أخذوا بعض ماله قيمةٌ من التحف وكانوا تعهدوا أن لا يفعلوا . فأمر بضرب رقابهم ، ورجع الى مصر وكان أمر بعمارة جسر على نهر الشريعة فظهر خلل في بعض أركانه وتعذّر إصلاحه بسبب طغيان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المياه فقلق الملك واتفق ان وقعت قطعة من الجبال على المجاري فانقطع الماء فأصلحوا الجسر وعادت المياه الى مجاريها . وعُدّ هذا من حسن طالع الملك ، ثم رجع بيبرس الى الشام لمناجزة الصليبيين في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ فاستولى على انطاكية في ٤ رمضان : ففي خلال الثلاثة الأشهر إلا أياماً اجتاز بيبرس قفار صحراء مصر وطور سينا حتى بلغ يافا ففتحها وفتح بعدها شقيف أرنون واكتسح أرباض طرابلس وحصن الأكراد ومرّ بحمص وحماة وأفاميا حتى انطاكية ففتحها : معاقل حصينة ، وعدوٌّ جبار مسلّح ، ومسافات طويلة تبلغ زهاء الف كيلو متر ، ولا سكك حديد ، ولا سيارات نقل ، ولا طيارات ، ولا بخار ، ولا كهرباء ، ولا تلفونات . أليس كل هذا من خوارق هم جارنا الملك الظاهر ، وشدة مضائه ، وعجيب عزائمه ! وماذا كان شأن بيبرس في الشام بعد هذا الفتح ؟ كان شأنه في الشام كما كان شأنه في مصر : قلق واضطراب وحذر وسوء ظن يجعله لا يستقر على حال ، ولا يهدأ له بال . كان وهو في مصر يفكّر في حال أمراء بلاد الشام وملوكها : أهم باقون على ولائه مستمسكون بطاعته ؟ يفكر في بقايا الصليبيين أما حان جَلاؤهم عن البلاد ؟ وهناك أرمن وتتار على الحدود في الشمال والشرق ما فتئوا يعيثون ويتربصون الدوائر بالبلاد — كل ذلك كان يزعجه فيُعَجِّل من مصر الى الشام فيعمل ما سمعتم نموذجاً منه آنفاً . حتى اذا استقر في الشام أخذ يفكر في مصر وأمرائها : أباقون هم على طاعته والنصح له والالتفاف حول وليّ عهده وضجيعه في قبره (الملك السعيد) فيهبُّ من فوره ويسرع الى مصر . وهكذا قضى سِني ملكه يراوح بين الرحلتين . ويتنزّى تنزّيَ النمر بين القطرين .

اكتسح الشام وفتح انطاكية وعيّد في دمشق . وعاد الى مصر فدخلها في ١١ ذي الحجة سنة ٦٦٥ ورأى ان يحتفل بولاية العهد لابنه السعيد ففعل وأخذ القضاة يحلّفون الأمراء على بَيعته وامحاض النصح في خدمته . وخرج الموكب من القلعة بأبهة السلطنة والظاهر بيبرس ماشٍ على قدميه أمام ابنه ، وولي عهده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل ذلك زيادة في تمكين السلطان له ، وتقريره في نفوس الأمراء : فلا تحدثهم أنفسهم بالانتقاض عليه ، واختلى به يوماً فقال له : (إنك صبيّ وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبيّ فمن بلغك عنه ما يشوّش عليك ملكك وتحققت ذلك منه فاضرب عنقه ، ولا تستشر أحداً فيه ، وافعل ما أمرتك به وإلاّ ضاعت مصلحتك) .

ولما هدأ باله من جهة ابنه سافر الى الشام لمقابلة رسل التتار فأنزلهم في القلعة واستقبلهم فيها وأدّوا رسالة ملكهم (ابغا بن هولاكو) ومما قال له فيها : (وأنت لو صعدت الى السماء أو هبطت الى الأرض ما تخلص منا . فالمصلحة ان تجعل بيننا صلحاً . وإنما أنت مملوك أُبِعتَ في سيواس (اي عُرضت للبيع فيها) فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها ؟)

فوسّع الملك الظاهر صدره لهذا التهديد والتعيير ، وصرف الرسل برسالة ملخصها : إنه عامل على استرداد ما بأيديهم من بلاد الاسلام وسيرون .

ثم تسلّل بيبرس عائداً الى القاهرة خفيةً ، والناس في دمشق يظنونه مريضاً : تغدو الأطباء عليه وتروح .

ويُفهم من كلام المؤرخ (ابن تغري بردي) ان بيبرس غادر بلاد الشام في ١٨ شعبان وعاد اليها في ٢٩ منه ، فكانت مدة غيابه احد عشر يوماً : منها أربعة أيام أقامها بمصر والباقي سبعةُ أيام للذهاب والإياب . أليست هذه السرعة في قطع المسافات من مواضع العجب إن لم تكن من مواضع الشك في صدق الخبر وضبط الأرقام ؟ اللهم الا اذا ادّعى مدع بأن بيبرس كان يمتطي خيل البريد المهيأة له في المنازل وهو منذ حداثته في بلاده اعتاد ركوب الأفراس والطراد عليها ، وكأن شربه حليبها . أورثه صبرها ودؤوبها . وجعل اعصابه من أعصابها ، ووثوب الفهد ليس من العجيب . وقديماً قالوا لكل مسمى من اسمه نصيب .

وكان غرضه من تعجيل الزيارة لمصر الوقوفَ على أحوال ولده وحسن قيامه بأعباء الملك واخلاص الأمراء له والاطمئنان الى خلو الجو من الدسائس والمؤامرات ؟ كل هذا كان يخافه الظاهر بيبرس لأنه درس طبيعة ذلك العصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخلاق أهله منذ حداثته : فهو يعرف ان الابن أحياناً يخون أباه وبالعكس ، والخشداش [1] يخامر على خشداشه ويسلمه الى الهلاكة . فلا تعجبوا أيها السادة من سوء ظن جارنا الملك الظاهر وشدة حذره .

وفي سفرته هذه الى الشام شخص منها الى الحجاز فأدى الفريضة وزار المدينة المنورة فهرب منها المتغلب عليها (حَمَّاز بن شيحة) من امراء عرب الفضل . فعجب بيبرس لهروبه . قال : ولو ظفرتُ به لما قتلته لأنه في حرم النبي ﷺ . ورجع الى مكة فطاف وسعى وصعد الكعبة وغسلها بيده بماء الورد وعاد الى الشام فمصر فأغدق الهدايا والخلع والمال على أمرائه ، ثم عاد الى الشام وهذه هي السفرة السادسة من سفراته ، وأريحوني أيها السادة من تعيين مقدار الأيام التي كان يمكثها هنا وهناك وفي الطريق فقد عرفتم نماذجها مما مرّ . وأنا أشعر أنكم مذ تتصورون قلقلة الظاهر ركابه في سفراته . ونشاطه في غدواته وروحاته تقارنون بينها وبين سكونه الأبدي في هذه الحفرة الضيقة التي وصفها سيدنا علي فقال : (لو زيد في فسحتها ، وأوسعت يدا حافرها ، لأضغطها الحجر والمدر ، ولسدّ فرجَيا التراب المتراكم) .

وقد أمرَ بيبرس وهو في الشام ابن اخت ملك عكا ، وبلغه ان مراكب الافرنج دخلت ميناء الاسكندرية واستولت على مركبين للمسلمين فهبّ مسرعاً الى مصر ، وبلغه هناك ان مراكب الافرنج عادت فنهبت ميناء الاسكندرية فأمر بتقوية وسائل الدفاع عنها : من ذلك أن تقتل كلابها ، وتُغلق حوانيتها ليلاً وان لا يوقد فيها نار ليلاً . ونهض الى الشام . وهذه هي سفرته السابعة فمر بعسقلان فهدم سورها فوجد تحته كوزين فيهما ألفا دينار ذهباً ففرّقها على إصحابه . ولم يصل هذه المرة الى دمشق بل عاد الى مصر ثم لم يلبث أن عاد

(١) الخشداش كلمة تركية شاع استعمالها بين مماليك ذلك العهد ، وكان الواحد منهم يطلقها على مملوك آخر توثقت بينهما أواصر الود مذ كانا مملوكين لسيدٍ واحد ، وجعلها بعضهم مرادفة لكلمة Camarade الافرنسية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى الشام فدوّخ وفتح وأسر من الصليبيين حتى التى عصا التسيار أخيراً على (حصن الأكراد) المعقل المنيع المشهور بين حمص وطرابلس فهدم أسواره واستولى عليه . وعلى البلاد التي حواليه .

ثم قصد طرابلس وشدّد الحصار عليها . وفي آخر الأمر هادن صاحبها (بيموند) على شروط : ومن تلك الشروط أن تكون عَرْقة وقُراها (وهي ست وخمسون قرية) صدقة من بيبرس على البرنس ، وهذه احدى دُعابات جارنا الملك . فأنف البرنس (بيموند) وتوقّف عن توقيع الاتفاقية وأبى بيبرس إلا إبقاء هذا الشرط بهذا التعبير . وفي آخر الأمر وقع البرنس الاتفاقية مكرهاً .

وعاد الظاهر الى مصر بعد أن أنفق في هذه السفرة على عسكره ثمانمائة الف دينار . وكان بلغه أن طائفةً من الأمراء تآمروا عليه وهو ما كان يخشاه ويقلق راحته فقبض عليهم وسجنهم في القلعة .

وبلغه ان صاحب قبرص جاء الى عكا فاغتنم بيبرس فرصةَ غيابه وأرسل الى قبرص حملةً بحرية فعصفت بها الرياح وتحطم من شوانيها (أي سفنها) أحد عشر من سبعة عشر شونياً . وأُخذ من فيها أسرى ، وكانوا ألفاً وثمانمائة . فعظم ذلك على الملك وأمر بمنع الخمور فأريقت . وكان التزامها ألف دينار كل يوم .

(لها بقية) المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الملك الظاهر بيبرس

ـ ٣ ـ

وفوجئ بيبرس وهو في مصر بأمر لم يكن في الحسبان : ذلك أن فقراء الصوفية هاجوا على شيخه الشيخ خضر . ومن مواضع العجب ان يستسلم عقل بيبرس الجبار الى هذا الشيخ وأباطيله . وما ذاك إلاّ لأنه كان بشره بالملك فناله فعدّ بيبرس هذا الاتفاق كرامة للشيخ فأسلمه قياده . وشدّ ما كان لأمثال هذا الاتفاق من أثرٍ مسيء في تاريخ الاسلام وفي عقلية المسلمين . فبنى له زاوية وكان يستشيره ويطلعه على أسراره . ويستصحبه في أسفاره . وقد عناه ابن رضوان بقوله في مدحةٍ للملك الظاهر :

(لما رأينا الخضر يقدم جيشه أبداً علمنا أنه الاسكندر)

وكان يخبره بالمغيبات فتقع كما قال . وسمى أحد أولاده خضراً تفاؤلاً باسمه فكبرت نفس الشيخ خضر . وامتدت أصابعه الى اللعب في المملكة . وتعدّى طورَه الى ما فيه إخلال بالأمن فتعرّض للمعابد غير الاسلامية . يتصرف فيها برأيه : ففي دمشق استولى على كنيسة اليهود . وعمل فيها سماعاً للصوفية . ومدّ لهم بساطاً . لكن هؤلاء الصوفية أنفسهم عادوا فثاروا عليه وأنكروا من اعماله ما لا يسوّغه عقل ولا يصدر مثله من مسلم . فاستدعاه السلطان وجمع بينه وبينهم . ولما علم صدق مقالهم استشار الأمراء فيه فأشار بعضهم بقتله . وبعضهم بحبسه . وشعر الشيخ خضر بميل السلطان الى الرأي الأول فقال له : (إن أجلي منوط بأجلك فإن قتلتني لحقتني) فخاف الملك وحبسه وذلك (سنة ٦٧١ هـ) وبعد خمس سنوات توفي الشيخ خضر فبلغ الملك وفاته وكان في دمشق فاضطرب ومرض ومات بعد أيام كما يأتي . وقبر الشيخ خضر معروف الى اليوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باسم (زاوية سيدي خضر) بشارع راس التين في الاسكندرية [1] .

واتفق ان هدم بيبرس احد قصور الفاطميين فوجد فيه امرأة في صندوق وقد نُقش عليه اسم الظاهر وصفته . وهذا بالطبع يسرّه ويُعلي من شأنه . والصندوق قد يكون هيأه من قبل تمخرقٌ كالشيخ خضر أو أنه فرعوني قديم وقد كتب عليه كلمة هيرو غليفية فحرفوها الى بيبرس .

واحتفل بزفاف ابنه الملك السعيد فرسم أن تجتمع العساكر في (قره ميدان) تحت القلعة فبقوا خمسة أيام وهم في مهرجان او عيد يمثلون معارك حربية وفصولاً هزلية . والناس من حولهم يلهون ويلعبون وخلع على رجال الدولة نحو الف وثلاثمائة خلعة . وأرسل مثلها الى دمشق . ومُدّت الأسمطة وحضرها رسل الافرنج والتتار . والملكُ جالسٌ على تختٍ من آبنوس مذهب أنفق عليه الف دينار وقدّم الامراء الهدايا حسب العادة فلم يقبل من كلٍ منهم سوى ثوب واحد جبراً لخاطره . قالوا (ولم تُمكّن واحدة من نساء الأمراء على الأطلاق من الدخول) ولم أفهم معنى هذا .

وبعد ذلك شخص الملك الى دمشق وهي سفرته الأخيرة . ومنها الى حلب فأقام في قرية (حيلان) ذات العين الفوّارة . ونهض منها فالتقى بالتتار وحلفائهم من بني سلجوق على نهر جيحان فكانت معركةً حامية الوطيس (وكان الملك يكرّ على العدو كالأسد الضاري ويقتحم الأهوال بنفسه ويشجع أصحابه ويطيب لهم الموت في الجهاد الى أن انزل الله نصره) وانكسر التتار اقبح كسرة .

---

(١) وقصة الشيخ خضر مع بيبرس صورة مكبرة لقصة الشيخ سليمان مع بربر . وذلك ان مصطفى آغا بربر الذي استبد بحكم طرابلس الشام قبيل دخول المصريين إلى سوريا كان يعتقد بولاية شيخ اسمه الشيخ سليمان وقد أسكنه معه في قلعة طرابلس وكان هذا الشيخ يقول لبربر أبشر يا أقرع إنك لا تموت إلا على فراشك . وكان لا يخرج من القلعة أصلاً وبربر من عامة الناس لكنه أعرف الناس بطبيعة الناس فأصدر فرماناً بحبس الشيخ سليمان في القلعة وعدم خروجه منها مدة حياته فغضب الشيخ سليمان على بربر وما زال به حتى نقض حكمه عليه واسترد حريته وجعل يخرج من القلعة الى حيث شاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقُتل من قُوادهم جماعةٌ كما استشهد من امراء بيبرس طائفة وأسر من كبار السلجوقيين طائفة . وهرب وزيرهم الأكبر المسمى (برواناه) الى عاصمتهم (قيصرية) فأخبر سلطانه (غياث الدين) بما جرى فهرب الى توقات . وقامت الشعراء تهنئ بيبرس وتتغنى بذكر بطولته وبطولة أمرائه . ولحق الملك بالمنهزمين الى (قيصرية) فمر بقرية أهل الكهف وهي (أفسس) الى ان دخل قيصرية ومشى اهلها بين يديه . وجلس على عرش ملوكها السلاجقة . وخُطب فيها باسمه وهادَن أولاد (قَرَمان) . وهم أُمراء كان لهم شان في ذلك الزمان والمكان . وعاد فمر بمكان المعركة فقيل له ان عدة من قتل من المغول وحدهم (٦٧٧٠) نفساً .

وعاد الى دمشق في ٧ محرم سنة ٦٦٧ ونزل بقصره الأبلق في المرجة . وقد بلغه ان التتار يتجهزون للكرَّة عليه فأوجس خيفة لأنه شعر بوعكةٍ وتعب . ثم بلغه ان ملك التتار عاد الى بلاده منهزماً فكان ذلك من لطف الله به : إذ أن وعكته استمرَّت ثمانية عشر يوماً على أثر إكثاره من شرب القِمِزّ الذي وصفناه في اول المحاضرة وقلنا إن (بيبرس) كان مولعاً به لأنه الشراب الوطني لقومه . شعر بيبرس في أول الأمر بحرارة في جوفه فوُصف له مقيء ثم مُسهل ثم مسهل آخر أشدُّ من الأول أعقبه نزيف ثم اشتدت حُمّاه . وضعفت قُواه . وهكذ اسلم روحه الى الله .

وذكر بعض المؤرخين لموته أسباباً ربما كان في بعضها بعضُ الصحة : ذلك ان القمر كسف كسوفاً كليًا وأظلمت الدنيا على أثره . فتأوَّلوه بموت رجل عظيم فخشي الظاهر ان يكون هو ذلك العظيم . فرأى أن يَفدي نفسه بالملك القاهر الذي كان من عظماء مملكته . وهو ابن المعظَّم عيسى بن الملك العادل (جارنا الأدنى) وكان بيبرس يحسد القاهر هذا على بطولته . وعلى لهج الناس بالثناء عليه . ويقال إن القاهر عاب الملك الظاهر في بعض ما كان منه في حرب التتار . كل ذلك حمله على الفتك به . فيتخلص من منافسته له أولاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويكون فدية عنه ثانياً . فدس له سماً في هناب [1] شراب القمز (والهناب قدح الشراب الضخم) وقام القاهر من المجلس الى فراشه ومن فراشه تواً إلى قبره . وغلط الساقي فسقى الظاهر بالهنّاب المسموم الذي شرب به القاهر ونسي ان يغسله من أثر السم . فكان ذلك هو السبب في موته . وقد عُدّ قتله للقاهر من أقبح المآثم التي كان ينبغي أن يتورّع بيبرس عنها .

وكانت وفاته في ١٤ محرم سنة ٦٧٦ وعمره احدى وخمسون سنة ومدة ملكه ثماني عشرة سنة . فكتم الأمراء خبر موته عن الناس ونقلوه سراً من القصر [2] الأبلق الى قلعة دمشق . فحنطوه وعلقوا تابوته في غرفة من غرفهم . وكتبوا إلى ابنه الملك السعيد بالخبر . واستأذنوه في مكان دفنه . لأن الظاهر أوصى ان يدفنوه على طريق (داريا) في مكان قريب منها . فلم يرض ابنه إلا أن يُدفن داخل سور دمشق . فابتاعوا دار العقيقي الواقعة أمام مدرستنا هذه بستين الف درهم فهدمت وبُنيت مدرسة للشافعية . ودُفن الظاهر في زاويتها الجنوبية . وفي الزاوية الشمالية حمام ما زال يعرف بحمام العقيقي الى اليوم .

---

(١) لفظ هناب من الألفاظ الصليبية الدخيلة اقتبسه المسلمون في أثناء الحروب الصليبية من الألمانيين واسمه في لغتهم (hnap) .

(٢) القصر الأبلق هذا ويسمى الجوسق أيضاً ، والجوسق كلمة تركية عربها العرب من كلمة كوشك) بناه الظاهر في مرجة دمشق بالحجر الأسود والأصفر ولذا سمي الأبلق وهو (يشتمل على قاعات مفروشة بالرخام الملون المفصل بالصدف والفصّ المذهب وله رفارف تباغي السحب وتشرف على المدينة والغوطة ، وقد كتب على أسكفته انه (عمل ابراهيم بن غنائم سنة ٦٦٨) وهو المهندس المصري المشهور الذي بنى المدرسة الظاهرية حيث مدفن الملك الظاهر وابنه الملك السعيد وعلى زاوية أسكفتها العليا كتبت العبارة المذكورة نفسها (عمل ابرهيم ابن غنائم) وبقي القصر الأبلق حتى هدمه تيمورلنك سنة ٨٠٣ ولبث منهدماً حتى بنى السلطان سليمان العثماني تكيته من أنقاضه سنة ٩٧٦ هـ وكان على واجهته مئة أسد منزلة صورها بالحجر الأسود في الأبيض وهناك أخرى بالحجر الأبيض في الأسود . وصورة الأسد هي (رنك) الملك بيبرس أي شعاره الخاص وما زال هذا الشعار الظاهري منقوشاً على بعض أحجار التكية السليمانية وبارزاً لعين من يراه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واشتهرت المدرسة باسم المدرسة الظاهرية وكان نقل جثمانه اليها في ٥ رجب فيكون قد بقي في تابوته معلقاً في القلعة ستة أشهر إلا أياماً .

***

هذا ما استطعنا ان نلخصه من أخبار جارنا الملك الظاهر . وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنه اعظم السلاطين الذين ملكوا مصر والشام بعد صلاح الدين . ويجيء بعده المنصور قلاوون . وهؤلاء الثلاثة لهم الفضل الأكبر في جلاء الصليبيين عن الديار الشامية وكانت مراكزهم الكبرى (القدس) و (انطاكية) و (طرابلس) : صلاح الدين أخرجهم من القدس . والظاهر من انطاكية . وقلاوون من طرابلس .

قال الذهبي (وكان الظاهر خليقاً بالملك لولا ما كان فيه من الظلم) وقديماً قالوا : لا يقوم الحق الا على شعبة من الباطل . ولم يقم فاتح من كبار الفاتحين ويستتب له سلطان من دون ان يرتكب شيئاً من الظلم والعدوان . من ذلك ما ذكرنا من اغتيال الظاهر للمعظم توران شاه ابن الصالح ايوب . ثم اغتياله الملك قُطز . ثم المغيث ملك الكرك وهو من سلالة بني أيوب . ويُروى ان السبب في قتل الأخير تعرضه بالسوء لامرأة الظاهر مذ كانت في الكرك . وأخيراً قتل بيبرس الملك القاهر دساً بالسم .

وأفظع من هذا كله قتله الفي أسير من الصليبيين بعد أن أمّنهم (كرمون التتارى) وهم يظنونه بيبرس كما ذكرنا في فتح صفد فأشبه بيبرس في فعلته هذه (نابوليون بونابرت) الذي قتل الفي أسير مسلم في يافا بعد رجوعه خائباً من عكا . وقد عاب المؤرخون عليهما فعلهما غير أن بعضهم التمس لهما عذراً بأن أسرى صفد وأسرى يافا نقضا عهد النابوليونَيْن ولم يطبقوا شروط الصلح التي اتفقوا عليها .

وللظاهر مشابه أخرى بنابوليون . ومنها النبوغ في فن الحرب وقلقلة الركاب في أطراف البلاد ونشاط الحركة في الكرّ والفرّ . وكان الظاهر يباشر الحروب بنفسه ويشارك جنوده في هدم الأسوار أحياناً ويعتني بالمرضى والجرحى معهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان مشتغلاً بهدم سور قيسارية يوماً فورد اليه كتاب من أُمرائه يشكون له ما لاقوا من أسوار (البيرة) فكتب اليهم (إنا بحمد الله ما خُصصنا عنكم براحة ولا دَعة . ولا انتم في ضيق ونحن في سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليلَ والنهار . وناقلُ الأحجار ومرابطُ الكفار . وقد تساوينا في هذه الأُمور . وما ثَمَّ ما تضيق به الصدور) فهو كنابليون يتألف رجاله وينصفهم من نفسه ويحملهم على التأسي به . وأرسل الرسل مرةً الى (بيموند) صاحب طرابلس ورافقهم في زي خادم كي يتعرف خبايا البلد ويدرس طرق الاستيلاء عليها .

ونقض ملك الروم عهده فاستقدم اليه أساقفة مصر وسألهم عن حكم نقض العهد في دينهم فقالوا حرام . ومن فعله يُحرَم من دينه وكتبوا ذلك في كتاب فألف بيبرس بعثةً اكليركية من راهب وأُسقُف وقسيس وارسلهم الى القسطنطينية يبلغون الملك قرار الحرمان . لكن الملك البزانسي ارعوى عن غيّه واسترضى الظاهر وجدد له بناء جامع القسطنطينية الذي بناه الأمويون في صدر الاسلام فأرسل الظاهر الى الجامع السجاجيد والمباخر وقناديل الذهب .

وقد ظهر لنا من تضاعيف أخبار بيبرس أنه لم تكن له أنسة ولا اهتمام بالموسيقى والشعر والشعراء . ولا بمجالس الأدب . ومحافل الطرب : فان السياسة وحبَّ الفتح والنكاية في العدو وعمرانَ البلاد وتشييد المباني والآثار — كلُّ ذلك شغله عما سواه . نعم كان يُعني بنشر العلوم الاسلامية على اختلاف ضروبها فقد بنى لها المدارس وعيَّن لها الفقهاء . وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في العهد الفاطمي بعد ان خَمَل شأنه في العهد الصلاحي . ولم يكن له شعراء ومغنون يُحيون مجالسه ويعيشون بجوائزه . كما كان لغيره من الملوك وهذا لعمري من محامده . وغرّ مناقبه : فإن حراسة البلاد والقيام بأعباء الملك جدير أن يشغل صاحب الملك عن اللهو وصنوف الدَعة والرفه . ويدلك على شدة اهتمامه بحراسة البلاد الاسلامية قوله لبعض امرائه وقد اشار الأمير عليه بملاينة التتار فانتهره بيبرس صائحاً : (أنتم سببُ هلاك المسلمين) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكل ما في الأمر انه اصطفى لرئاسة ديوان انشائه أديباً من الكتاب (وهو محي الدين بن عبد الظاهر) فكان ينظم احياناً الشعر مهنئاً له ، وواصفاً أعماله ، من ذلك أن الملك بيبرس حاصر عكا فلم ينَل منها ، ورجع الى عكار فنتحها فقال محي الدين :

يا مليك الأرض بُشرا ك فقد نلت السعادة
إنّ عكار لعمري هي عكا وزيادة

ولما أوقع الملك بالتتار على شاطئ الفرات هنأه كاتبه بقصيدة عارض فيها قصيدة ابن هاني الأندلسي في المعزّ الفاطمي التي أولها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فقال محي الدين :

سِرْ حيث شئت لك المهيمن جار واحكم فطوع مُرادك الأقدار

ومنها وهو معنى أظنه مبتكراً :

رَشَّتْ دماؤهم الصعيد فلم يَثرْ منه على الجيش السعيد غُبار

ولو قال (بلّت) مكان (رشت) لكان أجود .

ومما يدل على ان بيبرس ما كان يحفِل بكل ما يسمونه أدباً وأدباء وشعراً وشعراء — مجافاته لمؤرخ الأدباء والشعراء القاضي ابن خلكان فقد عَزَله من قضاء دمشق بعد ان قام به مدة عشر سنين . وكأن المؤرخ ابن خلكان اراد ان ينتقم منه فلم يذكر له ترجمةً في تاريخه كما ترجم لغيره من الملوك ممن لا يقاس به ولم يَفُرِ فَرِيَّه .

ومن شعراء عصره السِراج الورّاق وابو الحسين الجزّار وابن الخشاب ، ولم يكن لهم فيه مدح يذكر ، وشعر يؤثر ، ولم ينقل عنه أنه اجازهم بالأموال والبِدَر ، وكانوا اذا نظموا فيه قالوا شعراً متكلّفاً ، وسلكوا في مدحه طريقاً متعسفاً : من ذلك ما قالوه في مدرسته التي بناها في القاهرة ويقال انه بناها بحصته من غنائم انطاكية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال السراج :

مليك له في العلم حبٌّ وأهله فلله حبٌّ ليس فيه ملام

وقال الجزّار :

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا

وقال ابن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر بأن محلك الجوزاء

الى آخر القصائد وهي ليست مما اعتاد ان يقوله أمثال هؤلاء الشعراء في امثال ملك عظيم كالملك الظاهر وما كانوا ليقولوا هذا فيه لو اكثر لهم اللُّهى . إذ لا يخفى ان اللُّهى تفتح اللَّها ولم يكن هذا بخلاً منه فقد مرَّ انه كان يمنح رجاله الأموال الطائلة لكنه مشي في معاملة الشعراء على اثر عمر بن عبد العزيز

وكان الظاهر يحب التاريخ ويقول (سماع التاريخ اعظم من التجاريب) وكان يطرب لصناعة الانشاء ويسرّه ان تحبَّر الرسائل في مخاشنة الأعداء من ذلك ان الملك الظاهر كان حاول فتح طرابلس وتدميرها على رأس صاحبها البرنس (بيموند) . فلم يتيسر له ذلك فتركه وصمَد الى انطاكية وكانت انطاكية داخلةً في حوزة بيموند ففتحها بيبرس وقتل اربعين الفاً من أهلها بعد ان لم يتيسر فتحها لصلاح الدين . وعاد الى دمشق وأقيمت المهرجانات في قلعتها احتفالاً بالعيد وبافتتاح انطاكية وأرسل منها الى (بيموند) كتاباً يخبره بما وقع من الاستيلاء عليها . والكتاب من انشاء رئيس ديوانه وقد ساق خبر الفتح مساق البشارة لبيموند ولكنها على حد قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب اليم » والكتاب طويل مذكور في صبح الأعشى (جزء ٨ ص ٢٩٩) ونكتفي منه بفقرات . قال بعد ما وصف فتحه لانطاكية :

(وسلامةُ النفس هي التي يفرح بها الحي اذا شاهد الأموات . ولعل الله إنما أخر أجلك لتستدرك بالطاعة لنا ما فات . ولما لم يسلم أحد من اهل انطاكية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يخبرك بما جرى لهم خبَّرناك . أو يبشرك بسلامة نفسك وهلاك حزبك بشَّرناك . فينبغي لك بعد الآن أن لا تكذّب لنا خبرا ولا تقل لما جرى كيف جرى) .

وللشيخ النووي شيخ دمشق حكاية مع الملك الظاهر نختم بهـا محاضرتنا ذلك ان الملك أراد أن يضع ضريبة لتسديد نفقات الحرب واستفتى الفقهاء فأفتوه بما أراد ماعدا الشيخ النووي قائلاً : الضرائب انما تفرض عند الحاجة ولا تتحقق هذه الحاجة الا بعد ان يباع ما في القصر السلطاني من المماليك والأواني وحليّ الذهب والفضة التي هي كلها من مال بيت المسلمين وبعد ذلك للملك ان يضع ضريبة حرب . فسكت الملك مغضباً .

هذا أيها الملك الجليل والجار العظيم ما طالته يدنا من أخبارك . واستطعنا ان نجمعه من جليل آثارك . فإذا كان هناك أشياء من مناقبك لم تطل يدنا اليها . أو لم يتسع الوقت للإتيان عليها . فاعذرنا إذن وارجع الى الرمس . قرير العين مطمئن النفس والسلام .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net